اللقاء التاسع والعشرون من لقاءات التفسير في شهر رمضان المبارك من عام 1437هـ

الشواهد الدالة على أن القرآن كلام الله وليس من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم + تفسير سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

أخواتي الفاضلات، إليكم سلسلة تفاريغ من دروس أستاذتنا الفاضلة أناهيد السميري حفظها الله، وفّق الله بعض الأخوات لتفريغها، ونسأل الله أن ينفع بها، وهي تنزل في مدونة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ)

/!#/http://tafaregdroos.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح.
- هذه التفاريغ من اجتهاد الطالبات ولم تطلع عليه الأستاذة حفظها الله، أما الدروس المعتمدة من الأستاذة فهي موجودة في شبكة مسلمات قسم (شذرات من دروس الأستاذة أناهيد) /http://www.muslimat.net

- الكمال لله عزّ وجلّ؛ فكتابه هو الكتاب الوحيد الكامل السالم من الخطأ، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم فيه من خطأ فمن أنفسنا والشيطان، ونستغفر الله..

والله الموفق لما يحب ويرضى.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

نسأل الله أن يجعل القرآن ربيع قلوبنا، وأن يجعل القرآن الذي بقينا نتدارسه في تلك الأيام الخالية شفيعًا لنا يشفع لنا ل .م.ا نلقاه بحسن اعتقادنا فيه وبحسن فهمنا له وبحسن تلاوته وبحسن صحبته وبحسن الاعتقاد فيه وبحسن الدفاع عنه؛ فإن أولياء الله الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لابد أن يكونوا بدين الله معتزين، وبرسالة الرسول مفتخرين، وبالقرآن العظيم مرتفعين متيقنين متأكدين واثقين أنه كلام رب العالمين.

وهذا الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد مليء بالشواهد على أنه كلام الله، ونحن في محطتنا الأخيرة أو قبل الأخيرة نؤكد هذا المعنى ونبينه طالبن من الله أن يكون حسن اعتقادنا في كتابه سبب لأن يكون هذا الكتاب شفيع لنا، فأهل الإيمان جميعا لا يخالطهم شك أن هذا الكتاب العزيز الذي جاء على لسان الرسول الكريم أنه كلام رب العالمين، ولهذا الأمر عندنا شواهد كثيرة نعرضها ليس عرض الشاكين إنما عرض الواثقين المتيقنين الذين يحملون سلاحًا يردون به على المخالفين.

هذا الكتاب العظيم الذي أتى به رسولنا الكريم يشهد أنه من رب العالمين وليس من عند رسولنا يعني بنفسه، ولا من وحي ضميره ولا علّمه معلم من الخلق، بل هو قول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين؛ إنه جبريل–عليه السلام– الذي حمل الوحي إلى رسولنا –صلى الله عليه وسلم– تلقاه من لدن حكيم عليم، كما سمعه من رب العالمين ثم نزل به على قلب رسولنا الكريم، وهذا الكلام بلسان عربي مبين، فتلقنه رسولنا الكريم ووعاه وحفظه ثم بلغه ثم بُيّن له وفُسّر ثم طبّقه ونفّذه.

مهما شكك شاك في ذلك فإن الأدلة تامة الوضوح في هذا الأمر، والله –عز وجل– يقول لرسوله: **{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (16) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (17) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (18) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}** [القيامة]، فإذًا هذا القرآن نزل على رسولنا بلسان عربي مبين وكان الواسطة فيه هو جبريل عليه السلام، وكما اتفقنا فيه شواهد كثيرة لا نهاية لها على أنه وحي وليس من كلام الرسول –صلى الله عليه وسلم–.

الشواهد الدالة على أن القرآن كلام الله وليس من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم:

1) هذا الرسول الكريم لو كان هذا كلامه الذي يتكلم به من عنده لكان تكلم به كلما احتاج إلى ذلك، والنوازل كانت تنزل بالنبي –صلى الله عليه وسلم– والحاجات كانت تلح عليه ولكن كانت تمضي الليالي والأيام ولا يجد النبي –صلى الله عليه وسلم– في شأن هذا الأمر قرآنا يقرؤه علينا.

– ومن أوضح الأمثلة على ذلك حادثة الإفك: فهذه الحادثة المشهورة التي اتهم فيها عرض النبي –صلى الله عليه وسلم– وطال الأمر والناس يخوضون حتى بلغت القلوب الحناجر، والوحي قد أبطأ وهو –صلى الله عليه وسلم– لا يستطيع إلا أن يقول إني لا أعلم عنها إلا خيرًا! –رضي الله عنها– وتحرى واجتهد وسأل واستشار، ومضى شهر بأكمله والكل يقول ما علمنا عليها من سوء، لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: ((أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ))[1] وهذا كلامه من نقصه –صلى الله عليه وسلم–، كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الرجل الصديق المتثبّت الذي لا يتّبع الظن، وهو في مكانه لم يغادره بعد أن قال هذه الكلمات نزلت صدر سورة النور، وفيه الحكم بشرفها وطهارتها رضي الله عنها، والحديث قد أخرجه الشيخان في صحيحيهما.

شاهدنا من هذا: لو كان الكلام كلام الرسول –صلى الله عليه وسلم– فما الذي كان يمنعه من أن يتكلم به من أجل أن يحمي عرضه ويذب عنه ما ينسبونه إليه، الأعراض شأن عظيم، والنبي ما كان يترك الكذب على الناس ويكذب على الله، والله يقول:{وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (44) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (45) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ} [الحاقة] وهذا كله لا يمكن أن يكون كلام من عنده.

2) من الشواهد على ذلك: أنه كان يجيئه القول على غير ما يحبه ويرضاه، فيخطّأ رأيه ويؤذن له في الشيء لا يميل إليه، ويعاتب، حتى على الأمور اليسيرة {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ} [التحريم:1]. أيضًا يأتي في الأحزاب:{وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ } [الأحزاب: 37] هذا من العتاب، وفي التوبة قال الله له:{عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ} [التوبة: 43].

مواقف كثيرة كانت تجيئه الأوامر والأخبار والقول على خلاف فعله أو فيه عتب له –صلى الله عليه وسلم–.

[1] رواه البخاري في صحيحه.

وسورة عبس من أشهر الأدلة على ذلك {أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى (6) وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى (7) وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى (8) وَهُوَ يَخْشَى (9) فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى} [عبس: 5-10] فلو كان هذا كلام الرسول -صلى الله عليه وسلم- صادر من وجدانه كيف كان يعلنه! كان السكوت أولى في هذا الموقف، لكن هو -صلى الله عليه وسلم- يستقبل وحيًا، وهذا الوحي لا يستطيع كتمانه، وما هو على الغيب بضنين.

ولما ننظر في كل الأمور التي عوتب فيها النبي -صلى الله عليه وسلم- نجد أنها تنحصر في شيء واحد، وهو أنه -صلى الله عليه وسلم- إذا ترجّح بين أمرين ولم يجد فيهما دليل اختار الأقرب إلى رحمة أهله وهداية قومه وتأليف خصمه، والأبعد عن الغلظة والجفاء وإثارة الشبه في دين الله، هذا لو ما وجد نص واضح، أما لو وجد نص واضح فهو -صلى الله عليه وسلم- لا يتعداه أبدًا ولو كان على خلاف مراده.

- وقد ورد في بعض الآثار أنه لما توفي عبد الله بن أُبي كبير المنافقين كفنه النبي -صلى الله عليه وسلم- في ثوبه، وأراد أن يستغفر له ويصلي عليه، فقال له عمر رضي الله عنه: أتصلي عليه وقد نهاك ربك؟! فقال -صلى الله عليه وسلم-: إنما خيرني ربي فقال: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً } [التوبة: 80]، قال وسأزيده على السبعين، وصلى عليه، فأنزل الله: {وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ} [التوبة: 84] فترك الصلاة على المنافقين.

إذًا هذه القصة التي وردت في الصحيحين تدل على أنه رسول يوحى إليه وقد يتصرف من منطلق فهمه للنص فيأتي النص بعده يزيد الأمر وضوحًا وينهاه نهيًا بيّنًا، وهو -صلى الله عليه وسلم- ما فعل ذلك إلا رحمة، وما فعل ذلك إلا من جهة البشرية، لكن أتى الحكم الشرعي ينهاه عن ذلك.

3) ومن الشواهد: أن الأمر كان يأتي للنبي -صلى الله عليه وسلم- يجيؤه الأمر أحيانًا مجملًا، ولا يستطيع هو ولا أصحابه رضي الله عنهم تأويل هذا الأمر حتى ينزل بيان آخر، فلو كان كلامه -صلى الله عليه وسلم- من عنده كيف يصح هذا أن يأتي بالكلام أولًا ثم يقول: لا أفهمه، أو يحتاج مزيد بيان فيأتي بعد ذلك بيان آخر يبيّنه! فلو كان من تلقاء نفسه لا يمكن أن يستقيم هذا، لكن هذه من الأدلة الواضحة على أنه ناقل لا قائل -صلى الله عليه وسلم- وأنه مأمور وليس آمر.

- وهذا مشهور في قول تعالى في سورة البقرة: {إِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ} [البقرة: 284] فهذه الآية لما نزلت كما نعلم وقع فهم الصحابة على أنهم سيحاسبون على كل شيء حتى حركات القلب وخطراته، قالوا: يا رسول الله

أنزلت علينا هذه الآية ولا نطيقها! وهم صادقين يعني خاطرة تمر عليها تحاسب عنها! هذا شيء آخر غير النيات المكتسبة والعزائم المستقرة، هذا أمر آخر، العزائم المستقرة والإرادات المستقرة شأنها آخر، نحن نتكلم عن الخواطر التي تجري في النفس، الحديث في مسلم معروف، الشاهد انه لما نزلت الآية قالوا للنبي-صلى الله عليه وسلم- نزلت هذه الآية ولا نطيقها، فقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: {سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}))[2]، فجعلوا يتضرعون بهذه الدعوات، حتى أنزل الله بيانها فقال: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا} [البقرة: 286].

إذًا لو كان من عنده كان استبان الأمر مباشرة، لكنه من عند الله، ولأنه من عند الله ابتلى به الصحابة ثم بيّنه له {ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ}.

- وهذا الموقف مثله موقف الحديبية لما أذن الله للمؤمنين أن يقاتلوا من يعتدي عليهم أينما وجدوه غير أن لا يقاتلوا في الحرم من لم يقاتلهم فيه، فلما أجمعوا زيارة البيت الحرام في السنة السادسة أخذوا أسلحتهم حذرًا أن يقاتلهم أحد، فلما أشرفوا على حدود الحرم ووصل الخبر إلى قريش، وكانت قريش قد نهكتها الحرب، وهم سائرون في الطريق عند الحديبية بركت ناقة النبي وأخذوا أصحابه يثيرونها إلى جهة الحرم فلا تثور، فأخذوا يقولون خلأت القصواء، يعني حرمت الناقة، فقال لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، يدافع عنها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ولكن حبسها حابس الفيل، يعني الله -عز وجل- منعها، فلم يأذن للمسلمين من دخول مكة عنوة، فكان ما كان من الصحابة وكان ما كان من صلح الحديبية، وهم كانوا في حالة من الحزن الشديد خصوصا أنهم رأوا أن الله قد وعدهم أن تفتح لهم وأن يعتمروا ويؤدوا مناسكهم، فوقع في قلوبهم ما وقع، أخذوا يقولون: لم نعط الدنية في ديننا! وهم لم يكونوا ليتمردوا لكنهم يسألوا سؤال الغضوب الذي له حمية، فلو كان الكلام من عنده لقال لهم ولفعل معهم ما يريدون، لكن لما كان يراجعه عمر-رضي الله عنه-كان يقول: ((إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَلَسْتُ أَعْصِيهِ وَهُوَ نَاصِرِي))[3]. رسول لما يأمره ربه يقول ما يأمره، فكانوا يقولون: ألست قلت لنا أننا سندخل ونفعل؟ قال:((نعم لكن ما قلت لكم هذه السنة)) ! وهم في هذه الحال لا يريدون الاعتراض على رسول الله ولا على دين الله لكنها حالة الغضب الطبيعية التي تكون في نفوس الناس، فنزلت سورة الفتح: {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا} [الفتح: 24] وذمهم وبيّن لهم أنهم: {هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ

[2] رواه مسلم في صحيحه.

[3] رواه البخاري في صحيحه.

عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا} [الفتح: 25]. إلى آخر الأخبار التي فيها أن هناك: {رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ } تدخلوا مكة وهم في حال ضعف لم يعلنوا إسلامهم، {أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ } يلحقكم إثم بقتلكم المسلمين، لكن سيأتي الوقت والذي ستدخلوا فيه، {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ} هذا صدق، {لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آَمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: 27] فكان صلح الحديبية هو الفتح القريب.

فلو كان هذا القرآن من كلام رسول الله ما كان وعدهم بالفتح ووعدهم بالعمرة لما يأتون فيمنعهم ويصالح قريش على أمر يرونه أنه ليس من حقهم في شروط الصلح، إلى غير ما سمعنا وعرفنا عن قصة الحديبية التي كلها شواهد على أن الأمر أمر الله وليس شأن الناس.

4) مما نعرفه أيضًا في هذا الكتاب أن رسولنا الكريم كان يستقبل هذا الكتاب وهو أمي يستقبله يسمعه ويحفظه فيؤديه، وكان لأجل أن يصل لهذا الأمر لابد أن يحرك لسانه بما يسمع، فالكلام ليس من تلقاء نفسه إنما يسمعه ثم يحرك لسانه به، ولذا قيل له:{لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ} وهذا شاهد يفهمه من يعرف الفرق بين أن تزور كلاما في نفسك يعني تحضر كلام في نفسك وتقوله وبين أن تسمع كلام وتعيده من أجل أن تستطيع نقله.

لكن هو رسول كريم من عند رب العالمين نزل بالكتاب، وهذه بعض الشواهد من مسلكه –صلى الله عليه وسلم– لما كره – صلى الله عليه وسلم– المدح وكره الثناء من الناس عليه، قالت الربيع: فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَاتٌ لَنَا يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ إِذْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ! فَقَالَ: ((دَعِي هَذِهِ وَقُولِي بِالَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ))[4]، فهو –صلى الله عليه وسلم– بصِدْق رسالته لم يكن ليطلب أن يكون ممدوحًا بمعرفته الغيب، بل هو يحب أن يكون العبد الذي يبلّغ عن ربه.

فهذا وغيره من الشواهد على صدق هذا الكتاب العظيم يجعلنا نفهم ما أتى له –صلى الله عليه وسلم– في سورة النصر

5) هذه السورة فيها دلالة واضحة على أن هذا الكلام العظيم إنما هو من رب العالمين:

[4] رواه البخاري في صحيحه.

- لما بُشِّر هذا النبي الكريم بالنصر {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} هذه السورة العظيمة تسمى سورة التوزيع وهي من السور المدنية قد نزلت عند منصرف النبي-صلى الله عليه وسلم- من منى في أيام التشريق في حجة الوداع، وقيل: أن منصرفه من غزوة خيبر، ولما نزلت هذه السورة دعا رسول الله فاطمة وقال: ((إِنَّهُ قَدْ نُعِيَتْ إِلَيَّ نَفْسِي)) فَبَكَتْ ثُمَّ ضَحِكَتْ وَقَالَتْ أَخْبَرَنِي أَنَّهُ نُعِيَتْ إِلَيْهِ نَفْسه فَبَكَيْت ثُمَّ قَالَ: ((اِصْبِرِي فَإِنَّك أَوَّل أَهْلِي لِحَاقًا بِي)) فَضَحِكْت[٥].

وهذا من أعظم الأدلة على أن هذا وحي من عند رب العالمين، وليس من كلام الرسول الكريم كما تبين لنا هناك أمثلة كثيرة في القرآن تدل على ذلك، من بينها هذا المثال؛ يعني لما يكون الكلام من عند الإنسان لا يمكن أن يأتي يخبر عن شيء من الأخبار المستقبلية وخصوصًا لو كان هذا الخبر فيه نعي لنفسه يعني أنه سيموت، وقد أخرج البخاري عن ابن عباس أنه قال: كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر فقال في ذات مرة: ما تقولون في قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ }؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم، فقال عمر: فكذلك تقول يا ابن عباس؟ قال: لا، فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أعلمه له، فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول.

إذًا هذا من صدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن تنزل عليه سورة تخبره بخبر وتنعي إليه نفسه، فلا يمكن أن يكون هذا الكلام إلا كلام رب العالمين.

- وفي السورة أيضًا من الأخبار الغيبية: البشارة من النصر والفتح وبدخول الناس أفواجًا في دين الله، فهل هذا يمكن أن يكون من كلام الرسول؟! واليوم الناظر إلى بيت الله زاده الله تشريفًا وتعظيمًا يرى أفواج الناس الذي تحقق هذه السورة دلالة على أن هذا الدين يفتح له كل الأبواب عنوة أو بالرضا، وكان مفتاح ذلك فتح مكة وما ترتب عليها من إعجاز الدين وإظهار الكلمة، فإذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فسبح بحمد ربك، إذا حصل هذا فافعل هذا، وقد حصل هذا بأن فُتحت مكة وانتشر دين الله وأقبلت العرب بعضها على بعض، خصوصًا لما فتحت مكة أقبلت العرب بعضها على بعض تقول: أما إذ ظفر بأهل الحرم فليس لنا به يدان ولا نستطيع مدافعته، فكانوا يدخلون في دين الله أفواجًا.

[٥] رواه البيهقي، وَقَدْ رَوَاهُ النَّسَائِيّ كَمَا سَيَأْتِي بِدُونِ ذِكْر فَاطِمَة

{وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا}: والمقصود هنا أن الخلق تنكشف عنهم غمّة الكفر ويستجيبون لله ويجدون فيما أبلغهم رسول الله الحق، والرؤيا هنا رؤية بصرية بأن يرى النبي –صلى الله عليه وسلم– أفواج وفود العرب يفدون إلى المدينة يدخلون في الإسلام، ولما نعرف أن الذين حجوا مع النبي –صلى الله عليه وسلم– حجة الوداع كانوا مائة ألف من مختلف قبائل العرب نفهم معنى أفواجا! مائة ألف هذا عدد هائل في ذاك الزمان! والذي يفكر كيف طافوا كيف سعوا كيف كانوا في منى .. لكن هذه الأفواج، فقد رآها النبي بعينه ورآها من بعده أيضًا، رآهم وهم يدخلون في دين الله يشهدون شهادة أن لا إله إلا الله ويقيمون شعائر الدين ويتلبسون بمظاهره، فهم يدخلون الدين، فكأن هذا الدين حمى يحمي الخلق من التيه والضياع فيمنّ الله عليهم بأن يدخلوا فيه.

وفي دخولهم إلى دين الله نصرة لعقيدة المؤمن التي يعتقد فيها أن الحق لابد أن يظهر ولو بعد حين، وبيان أن أهل الباطل مهما غالبوا هذا الحق ومهما بذلوا الجهد فإنهم لا يفرقون إلا أنفارًا والحق يجمع الأفواج، يعني الساقطين مع الأعداء مهما كانوا سيكونوا أفرادًا، الضلالات تأتي أفرادًا ثم الله يجعل الحق ظاهرًا حتى يدخل الناس في الدين أفواجًا. والأفواج المقصود بها الجماعة الكثيرة.

ومعنى ذلك أن الجهود التي تُبذل في إضلال الخلق كثيرة ولما يكشف الله الغمة تكون الأفواج التي تدخل الحق عظيمة ودائما المؤمنين في حال يقين أنها ستنكشف الغمة ويذهب عنا ما بنا، وشاهد ذلك ما نراه من إقبال الناس على بيت الله وعلى سنة رسول الله وعلى العلم، وما نرى من حرص الرجال والنساء والشباب والكبار على إقامة شعائر الدين خاصة في شهر رمضان، وهو مقياس للشهور والأعوام ومقياس لمقدار تعظيم شعائر الله، نعم كثير من الشباب ربما تخلى عن حرصه بعد رمضان لكن ما نراه من مظاهر الإيمان هذه تنبئ بأن الدين مرتفع وأن له مكانته وأن شعائره منتشرة بين الناس وأن الصيام أمر غير مستنكر عندهم بل أمر مطلوب ويلامون على تركه وأن القيام مثله وأن الشاب فيهم يرى نفسه مقصّرًا إذا ما قام أو إذا ما ختم القرآن، مع أنه يمكن أن يكون بعيد في كثير من تصرفاته لكن لا بأس كون الشباب يقبلون على الطاعات ويعرفونها ويجعلونها مقياس لسلامة نفوسهم ويجعلون إقامتهم لهذا الدين سبب لرضا عن نفسه، يتأمل في مثل هؤلاء أن تصفو مشاربهم وأن تذهب عنهم الشبه وتدفع عنهم البلايا التي يصلها أعداءهم، فنحن كما نتوجع كثيرا للشباب الذين يدخلون في الإرهاب من جهة، أو يدخلون في الإلحاد من جهة، أو يغرقون في الدنيا من جهة، فإننا مع ذلك نرى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، شباب المسلمين تعود لهم حرارة الدين، ونحن ندعو والله يستجيب أن يصلحنا ويصلح ذرارينا ويتمم علينا نعماؤه.

ثم قال –عز وجل–: {فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}: سبح جواب:(إذا)، يعني إذا تم عليك أيها الرسول وعلى أصحابك النصر وصارت لكم الكلمة العليا على أعدائك وشاهدت الناس يدخلون في دين الله جماعات ثم جماعات بدون قتال، فداوم وواظب على تسبيح ربك عن كل ما لا يليق به.

وهنا التسبيح بحمد الله شكرًا لله وإيمانا بعظيم تدبيره وبالحكمة فيه وبالرحمة، فنشهد بذلك كله ونقول: سبحان الله وبحمده.

وأيضًا نستغفره، فيطلب العبد المغفرة لأن الأعمال مهما تمت فإن القبول شأنه عظيم، فيحتاج الإنسان بعد ما يتمم ما يستطيع من العمل أن يستغفر الله، يستغفره كثيرًا من أجل أن يصلح ما فسد في الطاعة.

ونحن في نهاية هذا الشهر نوصي أنفسنا بالاستغفار ونؤكد عليه، فنسبح بحمد ربنا شاكرين له أن منّ علينا بهذا الشهر ونستغفره نطلب منه الغفران على التقصير، والتسبيح والاستغفار كله من باب التهيئة للقاء الله، وكله إشارة إلى أنه كما تنتهي الأعمال تنتهي الآجال ويأتي لقاء الله، ولذا قال ابن عباس–رضي الله عنه–: أن هذا فيه نعي للنبي –صلى الله عليه وسلم–، وأن حياته الدنيا أوشكت أن تنتهي، فانتهاء أعمال الطاعات والقربات إذا انتهت أشارت إلى ذلك، فما نسأل بعد انتهاء الأعمال إلا أن يتجاوز الله –عزّ وجلّ– عما عرض لنا من اشتغال في وسط الطاعات سواء كان من الأمور الضرورية التي لابد منها أو من الخواطر الرديئة التي ابتلينا بها، ومثل هذا يفوت علينا خيرات كثيرة، لكنّه يغفر –سبحانه وتعالى– ويستر النقائص ويشكر القليل من العمل.

ثم أن العبد دائمًا يذكر نفسه لما يقبل على الله مستغفرًا أن ربه له وصف عظيم لما ننظر لهذه الجملة نرى فيها أربعة مؤكدات (إن، كان، صيغة المبالغة في التوّاب، التنوين الذي فيه التعظيم) معنى ذلك أننا هنا ندفع تماما وساوس الشياطين ولا يأس أبدًا من رب العالمين، مهما كان التقصير ومهما كانت الفرص كثيرة لكن ما اغتنمناها، وهذا شأننا جميعًا لكن نذكر نفسنا أنه توّاب، فإذا ذكرنا هذا خسأ شيطاننا وتذكرنا الوعد بحسن القبول، فإذا كان الله تواب سيتقبل استغفارنا ويتقبلنا نحن بأحسن قبول لأن هذا شأنه، فإن من شأنه إن كان توابا الصفح والتكرم، وإن كان من شأنه أنه تواب فمن شأن العبد أن يكون أوّاب، لا يتعاظمه تقصير ولا ذنب وإن فكر في ماضيه وتقصيره أو في حاضره وتقصيره فيزداد توبة ولا يستسلم أبدًا للشيطان ولا لليأس ولا يظن أنه يتعامل مع من لهم صفات النقص، بل هو يتعامل مع من ليس كمثله شيء، والنبي –صلى الله عليه وسلم– كان يكثر من الاستغفار بصيغ متعددة، فقد كان يقول رب اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري كله وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر

خطأي وعمدي وجهلي وهزلي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدم وأنت المؤخر إنك على كل شيء قدير.

فمن كان مسبّحًا مستغفرًا كان له ربه توابًا مقبلًا، يتوب عليه ويرحمه ويقبل توبته، وهذا ظننا برب العالمين!

وقد روى مسلم عن عائشة أن الرسول –صلى الله عليه وسلم– كان يكثر من قول: سبحان الله وبحمده أستغفر الله وأتوب إليه، فقال: أخبرني ربي أني سأرى علامة في أمتي، فإن رأيتها أكثرت من قول: سبحان الله وبحمده وأستغفر الله وأتوب إليه، فقد رأيتها **{إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ}** فتح مكة، **{وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا (2) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}**.

فإذًا كان يتأوّلها النبي –صلى الله عليه وسلم– ويسبح ويستغفر وهو الذي قد عُصم من الذنوب وقد كمل له ربه مكارم الأخلاق، فنحن من باب أولى أن يكون صفتنا الاستغفار والتسبيح.

ونذكر أنفسنا مرة أخرى أن هذه السورة من دلائل صدق نبوة النبي فإنه العبد الذي بُشّر بدخول الناس الدين، والعبد الذي نعي إليه نفسه، والعبد الذي أمر أنه إذا تمّ الشأن أن يسبح بحمد ربه تعظيمًا له وأن يستغفره من النقائص وهو الرسول الذي قد كملت أعماله لكن هذا من تمام العبودية والبشرية. فصلى الله على رسولنا وصلى الله على الرسل جميعًا وجعلنا ممن يشهد لهم لما نلقاهم أنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ونصحوا الأمة.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.